الدكتور عصام نور الدين

عناصر القوة في اللغة القرآنية

□ **ما مدى القوة في اللغة العربية الذي يضمن استمرار الأمة الإسلامية العربية وعدم تحولها إلى «هنود حمر» في أوطانها؟**

ـ أنت تعرف أن أي لغة في العالم ليست أداة توصيل وتفاهم فقط، بل الشيء الأخطر والأهم في كل لغة أنها تشكل تفكير الناس، إن الناس يفكرون بواسطتها.

اللغة إذن تتدخل في طريقة رؤية المرء للعالم المادي وللعالم الروحي كإنسان، وهذا ينتج عنه أن الحقائق الإنسانية قد تغيّر اللغة التي أفكر فيها وهذه قضية خطيرة جداً، لأن قوالب التفكير، الكلمة المشحونة بألوف السنين، بروح الأجداد إذا شئت تفرض نفسها على متكلم اللغة وعلى النتائج التي قد يتوصل بها إلى حل هذه القضية أو تلك. ولذلك أطلق العرب قبل الإسلام على لغتهم كلمة «لسان» بينما أطلقوا على اللهجات العربية كلمة «لحن» وأطلقوا على اللغات السامية كلمة «لغة» لما فيها من اللغو بالنسبة إليهم أي الكلام غير المفهوم بينما أطلقوا على اللغات غير العربية وغير السامية كلمة «بربر» و «عجم».

والقرآن الكريم جاء ليؤكد استخدامهم حيث وردت كلمة «لسان» ثماني مرات على ما أعتقد في القرآن الكريم، بمعنى اللغة، دون أن تستعمل كلمة «لغة»..

وأستطرد هنا لأقول بأن العرب ليسوا متفردين بذلك، بل إن اليونان من قبل قد أطلقوا على لغات الأجانب كلمة «بربر» أي

الشيء غير المفهوم بينما سموا لغتهم «لغة» معنى ذلك أن كلمة جماعة تتشكل داخل اللغة التي نتكلمها، هم تواضعوا على هذه اللغة لكنها عادت وأثرت في طرق تفكيرهم وطريقة رؤيتهم للعالم.

هل تشكل اللغة العربية بهذا المعنى عامل قوة وتوحيد للعرب؟ أقول لك نعم وبالفم الملآن، لماذا؟ لأنه عندما تكون العربية شائعة بين العرب وعندما يترفعون عن العاميات وعن اللهجات، يؤدي ذلك إلى اعتمادهم على لغة واحدة أي على طرق تفكير واحدة وطرق التفكير الواحدة تؤدي إلى نتائج واحدة..

إذا كانت المقدمات واحدة وهذا يؤدي إلى قوة العرب ووحدتهم لأن لا قوة للعرب ولا أمل لهم حتى في الاستمرار الجسدي إذا لم يشكلوا أمة قوية ومتحدة ومتكاملة اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وثقافياً وعماد ذلك وروحه هي لغة القرآن، اللغة العربية.

ـ اليهود واللغة:

□ لكن اليهود انتشروا في دول العالم وتعلموا لغاته لكنهم استطاعوا المحافظة على وحدتهم وكانوا يتقنون لغات أخرى حتى ان بعض من يأتي فلسطين اليوم يتعلم العبرية من جديد؟..

ـ أولاً، اليهود الذين انتشروا في اصقاع الأرض لم يحتفظوا باللغة العبرية صافية لذلك تعرضت اللغة العبرية منذ السبي الأول ـ إذا كان صحيحاً ـ إلى تغييرات مهمة واختفت اللغة العبرية عن ساحة اللغات الحية فترة طويلة من الزمن لكن تعصب اليهود للغتهم جعل أحبار اليهود يتمسكون بهذه اللغة لأنهم يعرفون أنها وسيلة قوة لأنه إذا ذابت اللغة ذابت الشخصية.

ثم كانوا بحاجة إلى قرار سياسي وقد جسد بدولة الاغتصاب ثم بدأت عملية فرض اللغة من جديد وقد تفاجأ أن الذي أراد أن يحيي اللغة العبرية في فلسطين قد سجن في البدء لأنهم اعتبروه مجنوناً وقالوا: كيف سنجعل هؤلاء المهاجرين إلينا يتعلمون اللغة العبرية. ـ وهذا صحيح في علم اللغة ـ لأنه حتى لو علمناهم اللغة العبرية فإنهم سيتكلمونها بلكنات مختلفة بمعنى أن عبرية الألماني تختلف عن عبرية العربي أو الحبشي أو الأميركي أو الروسي إذاً عندنا عبريات.

ثم من قال إن هذه العبرية هي عبرية التوراة؟ هذه ليست عبرية التوراة إنها عبرية مختلفة تماماً ولو جاء الذين كتبوا التوراة أول مرة لما فهموا شيئاً من هؤلاء الذين يقولون إنهم يتكلمون العبرية..

إذاً اللغة العبرية لا تضرب بما كنا قد قلناه بل تؤكده، أما اللغة العربية فوضعها مختلف تماماً، إنها منذ ١٥٠٠ سنة وحتى الآن لا تزال هي هي واللهجات دائماً تخضع للعربية الفصحى بفضل القرآن الكريم والعرب دائماً يجنحون للتمسك بالعربية بل ويقدسونها..

فالعرب المسلمون والمسلمون غير العرب يقدسون اللغة العربية وهذا التقديس هو الذي أدى إلى استمرار اللغة العربية طيلة هذا الزمن وسمح لك أنت الإنسان المسلم المعاصر أن تقرأ الشعر الجاهلي قبل الإسلام وأظن أنا وهذه دعوة للبحث أنه لو حصل لنا شعر وأدب ما قبل امرىء القيس لاستطعنا أن نفهمها وأن نقرأها وأن نتفاهم مع أصحابها لو بعثوا أحياء الآن لأنا حافظنا على اللغة العربية.

وهذا الفضل قد لا يكون للعرب وقد لا يكون للمسلمين لأنه لولا القرآن الكريم لما بقيت اللغة العربية واحدة موحدة ولكانت قد تناثرت إلى لهجات ولكان العرب قد أصبحوا أمماً وشعوباً وقبائل وفرط عقد الوحدة بينهم.

إذاً، اللغة العربية هي عامل توحيد وقوة ليس للعرب فقط بل للمسلمين لأنه لولا اللغة العربية لما اجتمع المسلمون، لأنك لو طبقت اللغة العربية وفرضتها في المعاملات كما في العبادات لرأيت اللغة عامل وحدة وقوة أشمل أي لنفرض أن سيريلانكا أصبحت دولة إسلامية كبيرة وأراد السيريلانكيون أن ينشروا الإسلام فهل ينشرون الدعوة الإسلامية باللغة السيريلانكية إذا أرادوا ذلك فالمسلمون في العالم كله سينعتونهم بالتعصب القومي، لذا فهم مضطرون لنشرها باللغة العربية ليحظوا بتأييد المسلمين كلهم وفي العالم كله.

إذا كان هذا الأمر صحيحاً بالنسبة للمسلمين فكيف هو بالنسبة للعرب أصحاب هذه اللغة، الذين نزلت الدعوة بينهم والذين نشروا الدعوة والدين معاً.

ـ أسباب الضعف:

□ هل ترون أن غياب اللغة العربية السليمة عن مفردات الحياة اليومية عامل إضعاف لقدرات المسلمين العرب؟..

ـ طبعاً، إذا أبعدنا اللغة العربية عن الاستعمال يؤدي ذلك إلى أن يتكلم كل فريق من العرب بلهجة محلية ثم بتقادم العهد وبتطور هذا الفريق أو ذاك تطورات مستقلة متباينة ستخلق الحاجة كلمات جديدة ثم تراكيب جديدة ثم لغة جديدة وينقطع الرابط بين العرب بعضهم مع بعض كما بينهم وبين قرآنهم، كما حصل مثلاً بالنسبة للسامية الأم التي تشعبت إلى لغات شرقية ولغات جنوبية ثم تشعبت كل لغة منها إلى لغات باستثناء اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم فاستمرت حتى الآن كما هي، لقد حفظها الله لنا بالقرآن..

ولكن إذا أبعدت اللغة العربية عن الاستعمال فستنشأ لغات أخرى لأن الناس بحاجة إلى أن يتفاهموا والتفاهم والتفكير لا يتمان إلا باللغة، إذاً أنت تفرض عليهم لغة جديدة تبعدهم وبالتدريج عن أبناء جلدتهم وأبناء لغتهم ومن هنا الدعوة إلى العاميات.

فأصحاب الدعوات العامية يريدون هذا بالضبط يريدون ابتداع أدوات تفكير وأدوات اتصال جديدة كي يشققوا هذه الأمة ويفرطوا عقدها ويجعلوها شعوباً وقبائل غير قابلة للالتحام أو للتعاون.

أما إذا استعملنا العربية الفصحى دون غيرها وجعلنا العاميات ترتقي إلى مستوى الفصحى أو تقترب من مستواها بحيث تفقد هذه العاميات خصائصها ومميزاتها التي لا تشترك فيها مع العاميات الأخرى فإننا نصل إلى عامية واحدة تقترب من الفصحى وقد نصل إلى عملية تطابق في يوم من الأيام بين العربية الفصحى وبين ما يسمى بالعامية لكن هذا لا يلغي مستويات الأداء اللغوي داخل الجماعة اللغوية، بمعنى أن اللغة العربية واحدة لكن الأداء مختلف حسب المجموعة وحسب حاجات هذه المجموعة واهتماماتها وثقافاتها.

وأنا هنا أدعو إلى حفظ القرآن منذ سن الطفولة عند كل عربي حتى وإن لم يكن يعلم معنى مفرداته في هذه السن لأن هذا الحفظ يؤدي إلى لغة عربية سليمة فيما بعد قائمة على أسس متينة.

ـ عناصر القوة:

□ ما هي العناصر الموجودة في لغة القرآن والتي تتضمن استمرارية القوة عند المسلمين والعرب وتحول دون استيعابهم ومحو شخصيتهم أمام أصحاب اللغات الأخرى الذين يمتلكون أدوات القوة في هذه المرحلة؟..

ـ صراع الشعوب يرافقه دائماً صراع اللغات، هناك لغات تتغلب على لغات أخرى فتصرعها فتبيدها؛ وقد لا نستطيع ذلك فينشأ عن الصراع لغة ثالثة، لا هي هذه ولا هي تلك، ولكن في جميع الأحوال فإن اللغة المهزومة مع أنها تموت كلغة لكنها قبل أن تموت تترك بصماتها في اللغة المنتصرة..

فإذا أردنا أن نطبق ذلك على اللغة العربية أقول لك إنها خاضت صراعاً مريراً منذ وجدت حتى الآن، أولاً مع شقيقاتها الساميات، فأنت تعرف أن الجزيرة العربية ـ الممتدة من المحيط إلى البحر الأبيض المتوسط ـ كانت مسرحاً تصارعت عليه الأقوام والشعوب القديمة بلغاتها القريبة من بعضها البعض.

وهنا تكون عملية الصراع أصعب وأكثر مرارة، كانت اللغات تبيد بعضها البعض فتتآكل وينشأ عنها لغة موحدة فلما جاءت اللغة العربية الفصحى قبل الإسلام ابتدأت تنزل بشكل سحري وغريب اللغات السامية ثم بدأت بعملية صراع ثانية عندما انتشر الإسلام في البلاد غير العربية كبلاد الفرس والروم وعمليات الصراع هذه تركت آثاراً واضحة في اللغة العربية، الآن في العربية الفصحى تجد آثار اللهجات واللغات السامية كما تجد بقايا

هذا الصراع موجودة في الآثار التي تركتها اللغات غير السامية كالفارسية والرومية أو حتى القبطية مع أن هناك من يعتبر القبطية فرعاً من اللغات السامية..

وفي العصر الحديث خضعت اللغة العربية لعملية صراع مع اللغة الفرنسية في الشمال الإفريقي ومع الايطالية في ليبيا ومع الفرنسية أيضاً في لبنان وسوريا ومع الانكليزية في فلسطين والخليج العربي، ومع ذلك لم تستطع هذه اللغات وقوة المتكلمين بها ورغم تفوقهم الحضاري ورغم أنهم حققوا الغلبة علينا عسكرياً واحتلوا بلادنا رغم كل ذلك لم تستطع لغاتهم مجتمعة ومنفردة أن تبيد اللغة العربية أو أن تبعدها عن المسرح.

السبب في ذلك يعود إلى نقطتين، أولاً القرآن الكريم وهو السبب الأول والأهم لأن كل مسلم مضطر لأن يقرأ القرآن وأن يؤدي صلاته باللغة العربية وهذا من أهم عوامل حفظها، وقد قرأت في أحد الكتب أن الجزائري الذي لم يتعلم اللغة العربية، عندما كان الاستعمار الفرنسي مسيطراً على الجزائر كان يستمع إلى القرآن الكريم دون أن يفهم معنى ما يسمع وكان يرفع صوت المذياع بالقرآن الكريم كحالة تعبير عن رفضه للاستعمار، القضية الثانية، أن اللغة العربية تحمل في ذاتها خصائص لغوية لا توجد في أي لغة ثانية في العالم.. أهم هذه الخصائص هي قضية الاشتقاق، فاللغة العربية قد تكون من أكثر اللغات في العالم في إعطاء الجنسية للغريب، أي استعمال غريب (تلفون ـ راديو ـ تلفزيون ـ أوتومبيل) فوراً يدخل إلى اللغة العربية بمجرد أن تتقبله الجماعة اللغوية ويعطونه الجنسية ليتعرف بأل التعريف وبالإعراب فنقول مثلاً (اشتريت التلفزيون ـ رأيت تلفزيوناً ـ رأيت فيلماً) فتصبح الكلمة عربية وتبقى شائعة وتستعمل إلى أن تستطيع الأمة أن توجد كلمة أكثر أصالة منها كما رأينا في (التلفون: الهاتف، الأوتومبيل: السيارة) إلى آخر هذه الكلمات فعند ذلك تموت الكلمة الدخيلة التي أخذت الجنسية بعد أن تكون قد أدت دورها وتتراجع عن المسرح شيئاً فشيئاً ثم تفنى وتموت..

اللغة العربية إذاً تحمل بالقرآن، وفي ذاتها عناصر قوتها واستمرارها، ثم هنالك قضية الإعراب التي تجعلك تعتمد على كلمات قليلة للمعاني الكثيرة وهذا غير موجود في اللغات الأجنبية، واللغة العربية قد تكون من اللغات القليلة في العالم إن لم تكن الوحيدة التي لا تزال تحمل اصالة واضعها، لم تنهجن، العبقرية العربية تستطيع أن تجدها في أي كلمة عربية صحيحة ويستطيع أي دارس أخذ بعض المعلومات عن العربية أن يقول بسرعة هل هذه الكلمة عربية أم أجنبية دخيلة على اللغة العربية والسبب أن للغة العربية أصواتاً وكلمات وتراكيب لا تزال تحتفظ بأصالتها وكلما تمسكنا بقرآننا حافظنا على هذه الأصالة.